آداب الصلاة

تحدث فضيلة الشيخ سليمان المدني في العدد الماضي عن آداب الصلاة واوضح فضيلته ان حياة الصلاة انما تستقيم بست جمل وهي حضور القلب، والتفهم المعنوي، تعظيم المعبود، مهابة الله، رجاء المصلي لرحمة ربه ولعفوه ومغفرته، والحياء من الله

وفي الدرس الثاني من الحديث عن آداب الصلاة يتحدث فضيلته عن جانب اخر من جوانب آداب الصلاة وهو الاعتناء بالمظهر الخارجي ونظافة البدن وازالة ماعلق من خبائث الشهوات من الذات حتى تستقيم الصلاة.

الدرس السادس لفضيلة الشيخ سليمان المدني

يقول فضيلته :

ينبغي للمؤمن وهو يتأهب للصلاة أن يعتنى بنظافة ساتره الظاهري وهو «الثياب» نظافتها من النجاسة الخبثية والاوساخ، وان ينظف أيضا قشره الخارجي وهو «جلد بدنه» من سائر النجاسات الخبثية والبدنية، وذلك عن طريق إزالة الاخباث ثم الوضوء او الغسل على ماتقتضيه الاحداث، ولكن الاهم من ذلك ان ينظر المؤمن وهو يدخل في مناجاة الله «عز وجل» ان ينظر الى ذاته فيزيل عنها ما علق بها من خبائث الشهوات من ادران الحياة وذلك عن طريق تجديد التوبة والعزم على ترك المحرمات والمحظورات الشرعية في مستقبل ايامه وان يغسلها او يوضئها بالندم على الماضي على ما ارتكبه من مخالفة في جنب الله سبحانه وتعالى ، لان المقدم على الدخول في الصلاة في الحقيقة مقدم على ملاقاة الملك الجبار - القوى - القادر / المهيمن على كل شيء فاذا قصد المسجد فهو في الحقيقة يقصد الله سبحانه وتعالى ولذلك ينبغي ان يتجلبب الخوف من الله، لو ان أحدا يريد الدخول على احد سلاطين الدنيا فانه يدخل عليه مترددا لا يدري ايؤذن له بالدخول والمؤانسة أم يحجب ويمنع؟

ولا شك ان الله سبحانه وتعالى لا يقاس به ملك ولا جبار في الدنيا فهو جبار الجبابرة وهو ملك الملوك وهو القادر فينبغي للانسان وهو يتوجه الى مقابلة ربه والدخول الى بيته ان يتجلبب بشعار الخوف لانه لايدري أيؤذن له بالدخول الى المسجد أم يحجب؟

والمنع هنا من الدخول من مقابلة الله سبحانه وتعالى والحضور في حضرته تعالى ليس بطريقة سلاطين الدنيا اي انه لا يشعر ان جسمه قد اوقف او منع من الدخول الى المسجد ولكنه يدخل الى المسجد ويقف للصلاة فلا يحصل لذة في الصلاة - لا يتوجه قلبه للمناجاة في الصلاة - يحرم المناجاة فتصير صلاته صلاة رسمية مجرد حركات وايقاعات من السكنات والقيام والقعود.

وفي الحقيقة يعد هذا حجب ومنع لهذا الانسان، ولذلك ينبغي ان يعتبر الانسان نفسه ان يعتبر قلبه فان وجد قلبه مستبشرا فرحا بدخول المسجد يدرك بان الله سبحانه وتعالى قد اذن له بالدخول وان ذنوبه قد تلطف الرحيم فاعفاه منها واذا احس من قلبه الاستثقال، واحس من نفسه التبرم والملل والضجر بسبب الدخول في المسجد فعليه ان يفحص نفسه وان يستعرض ذنوبه ذنبا ذنبا ويتوب عنها واحدا واحدا حتى تزول عنه هذه الحالة حتى يزول الحجب عنه والمنع له من دخول المسجد، لذلك وهو يتأهب للصلاة ينبغي له كما يعتني بالطهارة الخارجية الظاهرية كالطهارة من الخبث والطهارة من الحدث ان يعتنى أيضا بطهارة الذات ان ينقى القلب من ادران الملكات المسترذلة ان يجدد توبته ان يندم على ماضيه.. والتوبة معناها الندم على ما مضى والعزم على عدم العودة في المستقبل ولا شك ان الله سبحانه وتعالى لطيف ورحيم وكريم لا يقبل عليه العبد فيبعده

لذلك يقول الحديث القدسي «اذا تقربت مني شبرا أدنيتك ميلا»، فاذا جدد الانسان التوبة فعندئذ يرى ان الدخول في الصلاة والقصد الى بيوت الله «سبحانه وتعالى» يجد فيها راحة نفسية ولذة يأنس بها كما كان النبي «ص» حيث يقول «أرحنا يابلال» ومعنى ذلك ارحنا بالصلاة - وكيف - لا يرتاح «صلى الله عليه وآله في الصلاة» وفيها قرة عينه.

أنظر الى فصول الاذان وكيفيتها تبدأ بتكبير الله وتنتهي بذكر الله ومعنى ذلك انه يشير الى نقطتي البداية والنهاية فمن الله الابتداء واليه الانتهاء فهذه العبادة تبتدىء بذكر الله وتنتهي بذكر الله واذا كبر في الاذان عليه ان يدرك في نفسه أن الله سبحانه وتعالى اكبر من كل شيء واكبر من ان يوصف... واكبر من ان يكون له ند او ضد، واذا تشهد في الاذان فعليه ان يكون مؤمنا بقلبه.

اما اذا كان يكبر الله وهو يفكر في معصية الله لا شك ان هذا التكبير كاذب، واذا هلل لله اي قال لا اله الا الله وهو يفكر في شهواته يفكر في قضاء مآربه لا شك ان الله يقول له «انك من الكاذبين» كما قال للمنافقين حيث شهدوا لرسوله «ص» وآله بالرسالة قال «والله يشهد ان المنافقين لكاذبون» لانه عندئذ شهادتهم للنبي بالرسالة انما هي لقلقة باللسان اما قلبهم فلم يكن يحمل هذا المعنى - من يقول - لا اله الا الله عليه ان يتجرد من ربوبية والوهية كل شيء ماعدا الله، فاذا قالها متجردا من ربوبية والوهية كل شيء مع الله صدقه الله وصار صادقا.

اما اذا كان يقول هذه الكلمة وهو بعيد الاذن عن الله منصرف القلب عن الله قد لا يعلم ما قال وليته يعلم مايقول ولكنه لا يعلم مايقول بمعناه انه لم يكن حاضرا مع الله حين قال «لا اله الا الله» ماذا يكون الجواب؟

«انك من الكاذبين».

فاذا دخل في الصلاة واول الصلاة هي التكبير أيضا ومعنى التكبير كما قلنا «الاعتقاد ان الله سبحانه وتعالى» اكبر من ان يوصف بل اكبر من ان يؤدي حقه - يعني - لا يوجد انسان يتمكن ان يؤدي حقه حق تأديته ولا يتمكن من معرفته حق معرفته «الله اكبر من ذلك كله» ولذلك فان العقل الانساني المحدود هذا الانسان المحبوس في طامورة المكان والمقيد بقيود الزمان فهو اضعف جدا من ان يعرف الله سبحانه وتعالى حق قدره.. واين هو؟

فالرسل والانبياء والملائكة في هذا المقام يتصاغرون ويعلنون انهم بفضل الله سبحانه وتعالى يعرفون وانهم لا يعرفون شيئا الا من عنده فكيف ببقية الناس وعلى الاقل ان يكون قلب الانسان حاضرا في هذه اللحظة حتى يكون دخوله في الصلاة حضورا مع الله ومناجاة مع الله - قد لا يتمكن من استدامة الامور من اول الصلاة الى مكانها ولكنه على الاقل مطلوب ان يحضر ذهنه وقلبه في هذه اللحظة - لحظة افتتاح الصلاة للتكبير.

واذا اراد الانسان ان تخضع جوارحه وتطمئن فليتصور نفسه لو ان احد اقاربه المؤمنين الصالحين يراه وهو يركض في صلاته او وهو يعبث في صلاته او وهو يعمل شيئا منافيا في صلاته لكان يترك ذلك خشية من ان يلومه هذا الصالح من اهله، فاذا اعتقد ان الله سبحانه وتعالى يراقبه ويراه وانه بحضرته - ماذا يقول لنفسه.. ألا يخجل من نفسه؟

لانه يخجل من عبد صالح من عباد الله ولا يخجل من الله، واذا احضر في نفسه انه واقف امام هذا الملك الجبار الكريم الرحيم فعندئذ تطمئن جوارحه تهدأ نفسه في الصلاة فيشعر بلذة في المناجاة... واذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم.. ومامعني الاستعاذة؟

لو ان رجلا وقف عند جدار يريد ان ينقض وقال: أللهم اكفني شر هذا الجدار ولكنه لم يحرك قدمه للابتعاد عنه فهل يُكفى شر هذا الجدار؟

لو أن رجلا رأى عدوا في الطريق يحمل سلاحا فقال: اعوذ منك بحصن حصين... ولا يفر من امامه او يسعى لايجاد القوة الدافعة له... اترى فعلا يدخل حصنا حصين من هذا العدو؟

هكذا الاستعاذة من الشيطان وهي: ان يقول الانسان اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ولكن هل عمل على ايجاد القوة المانعة والرادعة للشيطان من ان يقترب منه او على الاقل هل فر هو من ميدان الشياطين الى حصن رب العالمين ؟

يقول الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «لا اله الا الله حصنى فمن دخل حصنى آمن من عذابى» وهو قد افتتح صلاته بالاذان والاقامة او بالاقامة وحدها وقد قال «لا اله الا الله» فهل حقيقة دخل حصن الرحمن حتى لا يتسلط عليه الشيطان

ام قالها لقلقة بلسانه وهو لايـزال بميدان الشياطين واقفا؟

عندما يقول: (اعوذ بالله من الشيطان الرجيم) عليه ان يطلب من الله سبحانه وتعالى العصمة له في مستقبل ايامه والعفو عما سلف منه حتى يجبل في حصن الله، فاذا دخل في حصن الله أمن من عدو الله وعدوه.. والشيطان اشد مايتربص بالمؤمن في الصلاة لماذا؟ لانه يحسد الانسان على هذه الصلاة!

الصلاة هي مناجاة لله.. كلام ـ مع الله.. والمؤمن عندما يقف يصلي ليتصور في نفسه: اننى أنا الانسان المذنب ـ المخطىء ـ المرتكب للجرائم في حق هذا الملك العظيم الذي لا يحد ملكه ولا حد لقدرته وعظمته وجبروته ـ مع ذلك أذن لي في ان أناجيه واخاطبه ـ هذه ـ قيمة ليست هينة قيمة عظيمة الشيطان محروم منها لانه مطرود عن مناجاة الله «أخرج منها فانك رجيم» فلما خرج من رحمة لله خرج من دار الايمان بالله من اجل ماذا؟

من اجل انه امتنع عن سجدة واحدة يسجدها لله لم يوفق اليها وانت تسجد في الصلاة اقل ما يكون في الصلاة اربع سجدات ـ طبعا ـ يأتيه الحسد فيعمل جاهدا على ان يصرفك عن المناجاة على ان يبعدك عن الخطاب مع الله سبحانه وتعالى فالاستعاذة بالله منه في هذا المورد ينبغي ان توجد القوة الرادعة له من الوصول اليه وذلك بطريق تجريد نفسك عن جميـع الشواغـل الدنيوية حتى ينحصر ذهنك وفكرك وقلبك مع الله.

في بعض الروايات ان مولانا «زين العابدين صلوات الله وسلامه عليه» وقف يصلي فسقط طفل له في البئر فضجت امه بالبكاء والعويل وانقلب البيت ولكن الامام «صلوات الله وسلامة عليه» مسترسل في عبادته حتى فرغ ثم جاء الى الجليب ومد يده فارتفع الماء واخذ الطفل واعطاه امه وقال لها: خذيه ياضعيفة اليقين قالت: اتبقى في صلاتك وابني يموت؟

قال «ع» لو صرفت وجهي عنه لانصرف بوجهه عني.

طبعا الانسان غير المعصوم لا يتمكن من الوصول الى هذه الدرجة ولذلك اوجب الله «سبحانه وتعالى» علينا انه من موارد قطع الصلاة انقاذ الانسان الهالك في بحر او بئر او نار او غير ذلك ـ لماذا؟

نحن اصلا لا يمكننا ان اتمام الصلاة ونحن نشاهد حريقا او نتم الصلاة ويسقط عندنا طفل في البئر او نرى انسانا في البحر يغرق اصلا لا يمكننا اتمام الصلاة.

طبعا الانسان العادى لا يكلف بهذا التكليف الذي لا يتمكنه الا من اختير خليفة في الارض لكن ينبغي علينا ان نعينهم «صلوات الله وسلامه عليهم» كما قال أمير المؤمنين «عليه الصلاة والسلام» «انكم لا تقدرون على ذلك ولكن اعينونا بورع واجتهاد وعفة وسداد» على الاقل هذه الشواغل الدنيوية من اننى سوف افعل كذا وسوف اذهب كذا وسأقول كذا وسأشتري كذا وسوف ابيع كذا على الاقل هذه الشواغل الدنيوية في ذلك الوقت نبذل جهدا في ابعادها عن اذهاننا ونحن مقبلون على مناجاة الله «سبحانه وتعالى» حتى لا يتمكن الشيطان من ان يجعلنا مجرد جسم قائم قاعد راكع ساجد دون ان تكون في صلاتنا مناجاة.

يعني حينما نريد أن نقول: اعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ ماهو ـ معنى الاستعاذة؟ من أهم الموارد التى يتربص الشيطان بالانسان هو ذلك المورد. فينبغي اذن ان يبعد هذه الامور عن ذهنه ولو فترة وقوفه بين يدي الله «سبحانه وتعالى» يشتغل لا يكن له هم غير الله.

الان مثلا: لو جئنا الى مقدمات الصلاة وكثيرا منها واجبة ومنها استقبال «القبلة» ماهو المقصود باستقبال «القبلة» وهل هو استقبال الله؟

الله سبحانه وتعالى لا يحد بجهة وانت تستقبل بيت الله والمفروض ان تتوجه الى الله «فولوا وجوهكم قبل المشرق او المغرب فحيث ماتولوا فثمة وجه الله» اذن وجه الله ليس محدودا في جهة من الجهات والمقصود من المؤمن وهو يريد ان يناجى الله ان يستقبل الله لانك لو ذهبت الى اقل مخلوقات الله واعطيته ظهرك واخذت تكلمه هل يرضى منك؟

لا يرضي منك ان تعطيه ظهرك وانت تخاطبه او تستقبله بكل مقادم جسمك ولكن تخاطبه وعينك تنظر في مكان اخر ـ اقل عباد الله لا يرضى منك ويعتبرك انك اهنته وانك ازدريته فكيف بملك الارض والسماء... وكيف بهذا الملك الجبار العظيم يقبل ان تقف لتناجيه وان تتكلم معه وانت غير متوجه اليه؟

التوجه الى بيت الله بالجسم ولكن التوجه الى الله «سبحانه وتعالى» بالقلب بالحضور، وما لم يكن القلب متوجها الى الله فهذا الانسان لا يقبل الله الكلام الذي يقوله ـ اذن ينبغي ان يستقبل الله حتى يقبل الله عليه بوجهه فاذا استعاذ بالله من الشيطان الرجيم وانتقل من ميادين الشيطان الى حصن ارحم الراحمين عندئذ يقول: بسم الله الرحمن الرحيم.. وماذا يعنى باسم الله الرحمن الرحيم؟

طبعا النحاة يقولون ان الاسم مجرور «بالباء» والجر يكون لغوا اذا لم يكن له فعل يتعلق به لا يكون ظرفا الا اذا كان الى الجر متعلق، واما اذا لم يكن الى الجر متعلق فيعبرون عنه بظرف «اللغو» ـ الجر هنا هل له متعلق؟

يقولون: نعم... ويقولون لابد ان نقدر فعل معناه أبتدىء او استعين او اعتمد حتى يكون حرف الجر راجعا الى ذلك الفعل فلا يكون المجرور ظرف لغو والحقيقة انه ينبغي الانسان وهو يقول «بسم الله الرحمن الرحيم» ان يكون معتمدا في واقعه على الله ومعنى الاعتماد عليه ان يفوض كل اموره بمعنى ان يعتقد في نفسه بانه لا وجود له الا من الله... ولا حول ولا قوة له الا بالله وانه ملك لله وانه ينتهى الى الله ـ هذا معناه.

المتعلق لا يحصره في معنى ابتدىء كما يقول «النحاة» او استعين او اعتمد ولكن ان يكون كله معتمدا الى الله «سبحانه وتعالى» حتى وجوده أن يدرك في تلك اللحظة معتمد على الله من بداية وجوده الى نهاية ما عنده من قدرة ومن حول ومن قوة حياة ومن نعمة كلها راجعة الى الله وهو يستعين «بسم الله» ولكن المقصود هو «المسمى» وليس «الاسم».

يقول أمير المؤمنين «صلوات الله وسلامه عليه» من عبد الاسم دون المسمى فقد كفر ومن عبد الاسم والمسمى فقد اشرك ومن عبد المسمى دون الاسم فهذا هو «التوحيد» فالاستعانة والاعتماد انما هو بالمسمى «بسم الله» ـ الله ـ هذا اسم... وينبغي ان يكون الاعتماد والتوكل والرجوع والانتهاء الى الله ذاته لا الى لفظ الله «الرحمن الرحيم» وطبعا لو لم يكن رحيما ولو لم يكن لطيفا ولو لم يكن كريما مع مايعمله الانسان من الاعمال ومن الذنوب ومن الآثام لعجل عليه بالعقوبة ولكشف ستره امام الناس ولفضحه.

ومع ذلك ـ مع ـ كل قدرته مع اطلاعه على كل شيء اذن له بالدخول الى بيته ومقابلته ومناجاته، فاذا كان كذلك ـ اذا ادرك هذه المعاني ـ ادرك ان هذا الرب الكريم الذي أنعم عليه الوجود اولا وانعم عليه بكل هذه النعم والافاضات ثانيا يستحق الحمد ويستحق الشكر ويستحق الثناء، فاذا قال الحمد لله يقولها عندئذ «صادقة» لانه قد احضر في ذهنه رحمة ربه وكرمه وما أفاض عليه من النعم «رب العالمين» ثم يمدحه بانه «الرحمن الرحيم» ثم يعود الى استصغار نفسه اذا ادرك كل هذه النعم ومنها التوفيق للمناجاة ومنها الاذن له بدخول هذا البيت والاذن له بالمقابلة والمكالمة ثم يلتفت الى نفسه ويدرك صغرها وحقارتها وجريمتها عندئذ يتصارع وانه ليس الا عبدا وانه ليس له رب الا هذا «الرب» فيقول «أياك نعبد» ويستعينه الى مستقبل ايامه في ان يوفقه لما يرضاه وان يجنبه ما يرضاه وان ينجيه ما فرضته علينا.

وعندئذ اذا استشعر من قلبه لذة المقابلة وعلم بالمؤانسة والموافقة تقدم بطلباته ـ يطلب من ربه عندئذ حاجاته، فان الملك اذا اذن لاحد عبيده او لاحد رعيته بمقابلته واستأنس معه في محادثته عندئذ اذا تقدم اليه ذلك المؤانس بطلب لا يرد طلبه ـ يقبل ويعطى مسئوله ومامولة فليتقدم اذن هو بطلبه ولكن لا يحصرن طلبه في الامور الصغيرة التافهة بل يوجه همته الى اعظم الطلبات واخطر الامنيات وهي «الهداية الى الطريق المفضي الى القرب» لأن الانسان كلما صار قريبا كلما تمكن من قضاء حوائجه اكثر.

فاذن اعظم نعمة هي ان يصير مرضيا عنه مقبولا فيطلب هذا الطلب «اهدنا الصراط المستقيم» الصراط الذي يفضي اليك ويقرب اليك ويهديك ثم يزيد هذا الطلب شرحا وتاكيدا فيقول: «صراط الذين انعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين لا الطريق الاخر الذي يبعد عنك ويغضبك ويمحق من يسلكه غير المغضوب عليهم» من اليهود والنصارى والصابئين «ولا الضالين» من الملحدين والمتزندقين. فاذن اذا احضر ذهنه للصلاة وادرك معنى مايقول لا شك انه يلتذ بهذه المناجاة.

واعلم بان كل ما يخطر في قلبك ليصرفك عن متابعة التلاوة وتدبر معناها هو «وسوسة» لان المطلوب من العبد في مقام المناجاة والمقابلة ان يعلم مايقول وان يدرك مايقول وان تتكيف نفسه وعقله وجسمه بما يقول فيلين ويشتد ويجزع ويفرح وينبسط ويحزن ويفرح بكل آية فيها ذكر لرحمة او يستشعر منها الخوف، فانك اذا قرأت «مالك يوم الدين» وتصورت اهوال القيـام وتصورت القيام، من القبور وكيف يكون مما هم عليه من الفزع الاكبر لابد ان الانسان في مثل هذه الحالة يقشعر جلده ترتجف فرائصه... اذن فاذا سار في الصلاة بهذه الكيفية فلا شك انه يتم صلاة تامة.

«وصلى الله على محمد وآله الطاهرين».